البَابُ الأولُ

ترجمة الأصمعي

الفصل الأول

نسب الأصمعى

تحقيق نسب الأصمعى – صلته بباهلة – التعريف بقبيلة باهلة

أقوال الرواة فيها – ذكر بعض الشوامخ من باهلة – أسرته

هو أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب بن عبد الملك بن على بن مظهر بن رباح بن عمرو ابن عبد شمس بن أعْيا بن سعد بن عبد بن غنم بن قتيبة بن معن بن مالك بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان.

هذا ما أورده الخطيبُ البغدادى فى تاريخ بغداد، وهو يتفق مع ما قال به غيره من أصحاب التراجم إلاّ من اختلاف يسير أحسبه من أخطاء الطبع [1]، وذكره ابن النديم وغيره مقروناً بكلمة الباهلى، وهذه النسبة شائعة عند كثيرين ممن عرَفُوا بالأصمعى، ولقد تتبعنا نسبَ الأصمعى فى جمهرة أنساب العرب، لنُحقِّقَ مدى صلته بباهلة على الوجه التالى:

بنو سعد بن قيس عيلان من مضر: غطفان، ومنبه وهو أعصر..

بنو أعصر: مالك زوج باهلة – وعمرو، وغنىّ وأمّهما هَمْدانيّة – وثعلبة، وعامر. ومعاوية أمّهم الطفاوة بنت جَرْم بن رَيّان (بالراء والباء المشددة) وإليها يُنْسَبُون.

بنو مالك: سعد مناة، وأمّه باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة من مذحج، ومعن بن مالك الذى يربط النسب إلى الأصمعى لم تلده باهلة، بل خلف بعد أبيه عليها، فولدت له أولاداً، وأحضنت سائر أولاده من غيرها، فنسب إلى باهلة، وكان من أولاد معن من غير باهلة قتيبة ومنه الأصمعى، وقعنب أمها بنت عمرو بن تميم.

ومن هذا يتّضح أن نسبة الأصمعى إلى باهلة كانت عن طريق الحضانة لا الدّم – ومع هذا – فإننا لا ننفى عن الأصمعى نسبته إلى باهلة. فقد كان ينتسب إلى القبيلة العربية من

(١) فى بعض نسخ وفيات الأعيان (بن علم).

بلوذُ بها من غير أبنائها عن طريق الولاء ، فأولى بالأصمعى أن يكون باهليًّا بصلته هذه التى أوضحناها .

قبيلة باهلة :

كانت قبيلة باهلة تسكن اليمامة[٢] ، واختارت مكانها حول بئر تسمى الحُفَير[٣] وإذا كان بعض الناس قد نال من باهلة فإنّنا لا نجدُ فيما بين أيدينا من نصوص ما يشين باهلة إلاّ ما يقال من أن باهلة امرأةٌ خلف عليها ابن زوجها ، وهذا وَضْعٌ لم يكن شاذًا فى الجاهلية ، بل كان أمراً معروفاً بين القبائل ، وكان من الشيوع أن جعلوا لهذه الظاهرة طقوساً : كان الرجلُ إذا مات عن زوجته أو طلّقها قام أكبرُ بنيه ، فطرح ثوبه عليها إن كان له فيها حاجة . ولقد ذكر صاحب بلوغ الأرب نقلاً عن ابن قتيبة أمثلة من اللواتى كن تحت بُعولتهن ، وخلف عليهن أبناء بعولتهن ، وذكر أفراداً من العرب بعضهم فى عداد الأماثل ، ولم يكن فى فعلهم ما عَرض قبائلهم لما تعرضت له باهلة[٤] ولكن هذا الأمر استُهجن بعد ذلك فى الإسلام حين نُهى عنه فى قوله تعالى : (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان

---

(٢) المعارف لابن قتيبة ٣٧ المطبعة الإسلامية سنة ١٩٣٤ .

(٣) ماء لباهلة بينه وبين البصرة أربعة أميال ، قال الحفصى : إذا خرجت من البصرة تريد مكة فتأخذ بطن فلج - فأول ماء ترد : الحفير ، قال بعضهم :

ولقد ذهبتُ مراغماً أرجو السَّلامةَ بالحُفَيْر
فرجعتُ منه سالماً ومع السلامة كل خَيْر

معجم البلدان ١ : ٣٠٤ ط السعادة سنة ١٩٠٦ .

(٤) كانت برّة بنت مر أخت تميم تحت خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، فخلف عليها ابنه كنانة بن خزيمة ... وكانت ناجية بنت جرم بن ربان من قضاعة تحت سامة بن لؤى ، فولدت له غالب بن سامة ، ثم هلك عنها ، فخلف عليها ابنه الحارث بن سامة .

وكانت واقدة من بنى مازن بن صعصعة عند عبد مناف ، فولدت له نوفلاً ، وأبا عمرو ، فهلك عنها وخلف عليها هاشم ابن عبد مناف ، فولدت له خالدة وضعيفة .

وكانت آمنة بنت أبان بن كليب عند أميّة بن عبد شمس ، فولدت له الأعياص ، ثم هلك عنها ، فخلف عليها ابنه أبو عمرو بن أمية ، وولدت له أبا معيط .

وكانت مليكة بنت سنان بن أبى حارثة المرى أخت هرم بن سنان تحت زبان بن سيار بن عمرو الفزارى ، فتزوجها بعده ابنه منظور بن زبان ...

وتزوج عمرو بن معديكرب امرأة لأبيه بعده فى الجاهلية : بلوغ الأرب للألوسى ٢ : ٥٣ ط سنة ١٩٢٤ .

فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً)[٥]

ويقولون فى أسباب اتضاع باهلة : إن قبيلتى فزارة وذبيان قد أخضعتاها مدة من الزمن ، ويقول حسن بن بكر الكلابى النسابة – وقد سئل عن السَّبب فى اتضاع غنى وباهلة عند العرب – فقال : لقد كان فيهما غناء وشرف ، ولم يضعهما إلاّ إشراف أخويهما فزارة وذبيان عليهما بالمآثر ، فدنوا بالإضافة إليهما[٦] .

أما الجاحظ فإنه يرى فى سبب اتّضاع باهلة مع غيرها من القبائل – النَّيْل منها عن طريق الهجاء فيقول : (وهل أهلك عَنْزَة ، وجَرْماً ، وسَلُولَ ، وباهلة ، وغَنِيًا إلاّ الهجاء ، وهذه قبائل فيها فضل كبير وبعض النقص فمحق ذلك الفضل كله هجاء الشعراء)[٧]

ومما يستقيم مع رأى الجاحظ كثرة ما بأيدينا من أشعار الهجاء فى هذه القبيلة ، فإذا تَفَحَّصْتَه وجدتَه لا يستند إلى سبب معقول أو حادثة بعينها ، وإنما يدور أغلبُه على التعميم ، وكأن النسبة إلى باهلة أمرٌ مجمع عليه بين القبائل بالضَّعة والخِسَّة : يقول أبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدى يهجو الأصمعى :

ألا هَبِلَتْ كل من ينتمى إلى أصمع أمه الهابلة
فكيف بمن كان ذاً دعوة وكِفَّة نسبته شائلة
أبِنْ لى دَعِىَّ بنى أصمع أقفْرُ رباعك أم آهلة
ومن أنت ؟ هل أنت إلاّ امرؤ إذا صحَّ أصلُك من باهلة

ويقول ثانٍ :

وما ينفع الأصلُ من هاشمٍ إذا كانت النفس من باهلة

ويقول ثالث :

ولو قيل للكلب يا باهلىٌّ عوى الكلبُ من لؤم هذا النسب

وكانت مصيبة باهلة أن الهجاء فيها أخذ طابع الفُكَاهة ، فتناقلته الألسنة ودار فى المجالس ، وطَيَّره الحديثُ والروايةُ :

---

(٥) الآية ٢٢ من سورة النساء .

(٦) وفيات الأعيان ٣ : ٢٥٣ .

(٧) البيان والتبيين للجاحظ ٤ : ٣٦ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٨) أخبار النحويين البصريين للسيرافى ٤٦ ط الحلبى سنة ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥م .

يروى أن قتيبة بن مسلم الباهلى - وهو أميرٌ فاتحٌ من مشاهير القُوّاد - يقول لهبيرة بن مسروح : أى رجل لو كان أخوالك من غير سلول ، فلو بَادَلْتَ بهم ، فقال : أَصْلَحَ الله الأمير ، بادِلْ بهم من شِئْتَ من العرب وجَنِّبْنِى باهلة ! .....

ويُحْكَى أن أعرابيًا لقى شخصاً فى الطريق ، فسأله : من أنت ؟ فقال : من باهلة ؛ فرثى له الأعرابى ! فقال ذلك الشخص : وأزيدك أنّنى لستُ من صميمهم ، ولكن من مواليهم ؛ فأقبل الأعرابى يقبل يَدَيْه ورجليه ؛ فقال له : ولم هذا ؟ فقال : لأن الله تبارك وتعالى ما ابتلاك بهذه الرَّزِيَّة فى الدنيا إلا يعوضك الجنة فى الآخرة !

وقيل لبعضهم : أيَسُرُّكَ أن تدخل الجنة وأنت باهلى ؟ فقال : نعم ؛ بشرط ألا يعلم أهل الجنة أنّى باهلى !

ثم تطاولوا ، فتقوّلوا على النبى ﷺ فى هجاء باهلة ما يأباه المنطق والذوق ، قالوا : إن الأشعث بن قيس الكندى سأل رسول الله ﷺ : أتتكافأ دماؤنا ؟ قال : نعم ، ولو قتلتَ رجلاً من باهلة لقتلتك به[٩] .

ومن المرجح أن ما أصاب باهلة يعود فى بعضه إلى الخصومة بين آل المهلب وآل قتيبة بن مسلم الباهلى ، وأن هذه الخصومة مَهَّدتَ للراغبين فى إرضاء آل المهلب أن يُطلقوا ألسنتهم فى الباهليين ، كما نُرجح أنّ خصومَ الأصمعى وقد نفسوا عليه علمه وفضله قد تعمدوا النيل منه ، وكأن هذا الهجاء ردٌّ فعل لما وصل إليه الباهليون من مجد . ونحن نقدم إليك لفيفاً من الأعلام والشوامخ ينتسب جميعهم إلى باهلة :

كان منهم مسلم بن عمرو بن الحصين ، وكان من المقربين عند يزيد بن معاوية ، ومنهم قتيبة بن مسلم الذى حكم الرّى وخُراسان وهو دون الخامسة والثلاثين خلفاً ليزيد بن المهلب ، فوسّع رقعة الأمويين إلى الشرق حتى حدود الصين[١٠] .

ومنهم سلم بن قتيبة بن سلم الذى كان عاملاً على البصرة لعمر بن هبيرة والى العراق ، ثم ولى هذا المنصب فى زمن أبى جعفر المنصور ، وكان قتيبة بن سلم ، وصالح ، وبشار ، وعبد الرحمن ، وعبد الله إخوته وكلهم باهلى من الذين أبلوا بلاء حسناً فى فتوحات

---

(٩) وفيات الأعيان ٣ : ٢٥٣ ط السعادة سنة ١٩٤٨م .

(١٠) وفيات الأعيان ٣ : ٢٥٠ .

المشرق[١١] . ولاحظ الرشيد هذا الفضل فيهم فسأل سعيد بن سلم : من بيت قيس فى الجاهلية ؟ قال : يا أمير المؤمنين من شَرَّفْتُموه ؟ قال : صدقت : أنت وقومك[١٢] .

والمبرد يروى عن أبى القاسم بن على بن سليمان الهاشمى عن رجل من أهل مكة مناقب ابن سلم فى خبر ذكره فى كتاب الكامل ، فتحدث عن نعمته وكثرة عدد ولده وحسن مذهبه وكمال مروءته . وقال : كان إذا استقبل السنة التى يستأنف فيها عدد سنيه أعتق نسمةً . وتصدق بعشرة آلاف درهم ، ومع ذلك لا يسلم أبناؤه من هجاء أحمد بن يوسف . وكان كاتباً لأحدهم فيقول :

أبنى سعيد ، إنكم من معشر ... لا يعرفون كرامة الأضيافِ
قومٌ لباهلة بن يعصر إن همُ ... نُسبوا حسبتهمو لعبد مناف
قرنوا الغداء إلى العشاء وقرّبوا ... زاداً – لعمر أبيك – ليس بكاف
وكأنّنى لما حططتُ إليهم ... رحلى – نزلتُ بأبرق العزاف[١٣]
بينا كذاك – أتاهمُ كبراؤهم ... يلحون فى التبذير والإسراف[١٤]

وهذا خبر نحار فى مكانه : أفى المناقب نضعه أم فى المثالب . وهو يصور ذروة التَّجَنّى عليهم ، وذروة شأنهم أيضاً يحكى أبو قلابة الجرمى فيقول :

حججنا مرة مع أبى جزء بن عمرو بن سعيد ، قال : وكنا فى ذراه ، وهو إذ ذاك بهىٌّ وضىٌّ . فجلسنا فى المسجد الحرام إلى أقوام من بنى الحارث بن كعب لم نر أفصح منهم ، فرأوا هيبة أبى جزء وإعظامنا إياه مع جماله ، فقال قائل منهم له : أمن أهل بيت الخليفة أنت ؟

قال : لا ، ولكن رجل من العرب

قال : ممن الرجل ؟

قال : رجل من مضر

قال : أعرض ثوب الملبس ، من أيها عافاك الله ؟

قال : رجل من قيس

---

(١١) فتوح البلدان ٤٢٨ .

(١٢) الكامل للمبرد ٢ : ٢٤٥ ط الأزهرية سنة ١٣٣٩ هـ .

(١٣) ماء لبنى أسد بن خزيمة سمى بذلك ، لأنهم يسمعون فيه عزيف الجن (معجم البلدان) .

(١٤) معجم البلدان .

قال : أين يراد بك ؟ سِرْ إلى فصيلتك التى تؤويك

قال : رجل من بنى سعد بن قيس

قال : اللهم غفرًا ، من أيها عافاك الله ؟

قال : رجل من بنى يعصر

قال : من أيها ؟

قال : رجل من باهلة

قال : قم عنا !

قال أبو قلابة : فأقبلت على الحارثى فقلت : أتعرف هذا ؟

قال : ذكر أنه باهلى

قلت : هذا أمير ، ابن أمير ، ابن أمير ، ابن أمير ، ابن أمير !

حتى عددت خمسة ، ثم قلت : هذا أبو جزء أمير ، ابن عمرو وكان أميراً ، ابن سعيد وكان أميراً ، ابن سلم وكان أميراً ، ابن قتيبة وكان أميراً !

وقال الحارثى : الأمير أعظم أم الخليفة ، فقلت : بل الخليفة ! قال : آلخليفة أعظم أم النبى ؟ قلت : بل النبى قال : والله لو عددت له فى النبوة أضعاف ما عددت له فى الإمارة ، ثم كان باهلياً – ما عبأ الله به شيئاً ! قال : فكادت نفس أبى جزء تخرج فقلت : انهض بنا ، فإن هؤلاء أسوأ الناس آداباً[١٥] .

والأصمعى : عبد الملك بن قريب من البارزين فى بنى أصمع ، ويبدو أن أسرة الأصمعى كانت كبيرة ، فكان لهم حىٌّ يعرف باسمهم فى البصرة : جاء ذلك فى حديث لأبى عمرو ابن العلاء يقول فيه : خرجت مع الأصمعى إلى المسجد الجامع فلما صِرْنا إلى الدَّرب الذى يخرج من سكة المربد إلى بنى أصمع – وقف بى على دار مبنية بالآجر والحصى هناك .....[١٦] .

ولا نعرف عن جدّه الكبير (أصمع) إلاّ أنه أدرك الإسلام وأسلم ، أما جَدّه علىّ فقد تقلّب فى بعض الوظائف الصغيرة منذ زمن عثمان حيث بدأ يقرأ كتب الخليفة على المنابر : يقول التَّوزى : سألت أبا عبيدة عن قول الشاعر :

---

(١٥) الكامل للمبرد ١ : ٢٤٦ ، ٢٤٧ ط الأوهرية سنة ١٣٣٩ هـ .

(١٦) أخبار أبى نواس لابن منظور ١ : ١٥ ط الاعتماد سنة ١٩٢٤ م .

وأضحت رسومُ الدار قفراً كأنّها كتابٌ تلاه الباهليُّ بن أصمع !

فقال : هذا يقوله فى جدّ الأصمعى ، كان يقرأ الكتاب على المنبر كما يقرؤه الخراسانى ، قال التَّوزى : فسألت الأصمعى عن هذا ، فتغيَّر وجهه ثم قال : هذا كتاب عثمان ورد على ابن عامر (والى البصرة لعثمان) ، فلم يوجد له من يقرؤه إلا جَدّى ![١٧] .

وظل يتدرّج فى مثل هذه الوظائف فى زمن على أيضاً ، فتولى وظيفة فى سفوان[١٨] واختان شيئاً من أموال الوظيفة ، فلما رفع الأمر إلى على رضى الله عنه قال : جيئونى بمن يشهد بذلك ، حتى إذا تأكّدت التهمة عليه أمر به فقطع من أشاجعه ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، ألا قطعته من زنده ؟ فقال : يا سبحان الله ! كيف يتوكأ ؟ كيف يُصَلى ؟ كيف يأكل ؟ فلما قدم الحجّاج بن يوسف البصرة سعى إليه متوسّلاً بخصومته لعلى بن أبى طالب فقال : أيها الأمير . إن أبَوىّ عقانى فسمّيانى عليًّا فسَمِّنى أنت ! فَسُرّ الحجّاج . وقال له : ما أحسن ما توسلت به ! فقد وَلّيتك سمك البارجاه . وأجريتُ عليك فى كل يوم دانقين فلوساً . والله لئن تعدّيتهما لأقطعَنْ ما أبقاه علىٌّ من يدك ![١٩] .

وفى نفسى من هذا الخبر شىء ، فهو يشاكل الأخبار التى وضعت فى باهلة بقصد النيل منها : يؤيّدنا خبرٌ آخر يشير إلى أنه كان ثالث ثلاثة يختارهم الحجّاج ، ويطمئن إليهم فى أمر خطير هو دراسة المصاحف واستخلاص مصحف عثمان ، وتقطيع ما عداه ، ذكر ذلك ابن قتيبة ، فقال :

(وكان الحجاج وكّل عاصماً ، وناجية بن رمح ، وعَلِىّ بن أصمع – بتتبع المصاحف ، وأمرهم أن يقطعوا كل مصحف وجدوه مخالفاً لمصحف عثمان ، ويعطوا صاحبه ستين درهماً[٢٠]) .

أما قريب – والد الأصمعى – فهو أبو بكر عاصم بن عبد الملك بن على غلب عليه لقب قريب ، ولد سنة ثلاث وثمانين للهجرة ، وكان رجلاً من أواسط الناس ، لم يبلغ مبلغاً

---

(١٧) أخبار النحويين البصريين ط الحلبى سنة ١٩٥٥ .

(١٨) سفوان اسم موضع بالبصرة ، ومن قصد البحرين من البصرة يخرج إلى سفوان ، ثم إلى كاظمة ، ومنها يتجه إلى هجر وفيات الأعيان ٣ : ٣٤٨ .

(١٩) وفيات الأعيان ٣ : ٣٤٧ .

(٢٠) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ط دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م .

فيتحدثون عنه كما تحدثوا عن ابنه ، ولم يكن وضيعا خاملاً ؛ فقد عُرِف أنه كان يحضر مجلس العلم بين يدى الحسن بن يسار البصرى ؛ كما كان من مواليه رجل يسمى ابن الأجيد[٢١] .

ولكن أبا عبيدة وإسحق الموصلى – قد حملا على قريب أيضاً ، وكانا يشتركان فى النيل من الأصمعى ، ويتنا ولان والده بالسخرية اللاذعة ، ويتضح فى أخبارهما عنه أثر الافتعال ، وتأكيد الرغبة فى الحط من قدره : فما يقوله إسحق .

جاء عطاء الملك بجماعة من أهل البصرة إلى قريب أبى الأصمعى – وكان نذلاً من الرجال – فوجده ملتَفًّا فى كسائه نائماً فى الشمس ، فركضه برجله ، وصاح به يا قريب ، قم ويلك ! فقال له : هل لقيت أحداً من أهل العلم قط أو من أهل اللغة ، أو من العرب الفقهاء أو المحدثين ؟

قال : لا ، والله .

قال : ولا سمعت شيئاً ترويه لنا ، أو تنشدنا ، أو نكتبه عنك ؟

قال : لا ، والله .

فقال لمن حضر : هذا أبو الأصمعى ! فاشهدوا لى عليه وعلى ما سمعتم منه ، لا يقلْ لكم غداً أو بعده : حدثنى أبى أو أنشدنى أبى[٢٢] .

ويحكى رجل اسمه أحمد بن عيسى – وكان يُؤدِّب ولدَ إسحق بن إبراهيم ويبدو أنه سمع الخبر من إسحق – قال : (كان أستاذَ الأصمعى وأبى عبيدة عطاءُ الملط (هل يقصد الملك ؟) رجل من أهل البصرة ، وكانوا يقصدون إليه ويتعلمون منه ، فبلغه أن الأصمعى اتخذ حلقة ، واجتمعت إليه جماعةٌ . فغاظه ذلك ، فلما انصرف من حلقته استتبع أصحابه فقال : مُرّوا بنا إلى ظاهر البصرة ، فخرجنا حتى مررنا بشيخ معه أعنز يرعاهن وعليه جبة صوف ، فقال له : يا قريب ؟ فقال : لبيك ، قال : ما فعل الأصمعى ابنك ؟ فقال : هو عندكم بالبصرة ، فقال : هذا أبو الأصمعى لئلا يقول غداً : إنه من بنى هاشم ![٢٣] .

والخبران – ويبدو أنهما من معين واحد – باديا الطَّلاوَة إذا أُعدّا للتشهير والمَثْلَبَة : فأى

---

(٢١) الأمالى للقالى ٣ : ١٢٦ ط دار الكتب .

(٢٢) الأغانى ٥ : ٣٨٧ .

(٢٣) معجم الأدباء ١٢ : ١٦٩ .

قسم بالله يأتيه قريب أنه ما رأى فى حياته قط إنساناً من أهل العلم ، أو من أهل اللغة ؟ وما حاجة الخبر إلى قسم ؟

أما أبو عبيدة – وكان على رأس الكارهين للأصمعى – فقد قيل له : إنّ الأصمعى يقول : بينا أبى يساير سلم بن قتيبة على فرس له ، فقال أبو عبيدة : (سبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، المتشيع بما لم يُوتَ كلابس ثَوْبَىْ زور ! والله ما ملك أبو الأصمعى قط دابة إلا فى ثوبه !)[٢٤] وقد تلحظ – فى وضوح – الحدة فى كلام أبى عبيدة والخبر لا يحتمل هذا القدر من التكذيب : فسلم بن قتيبة وقُرَيب كلاهما باهلى وعلى قرابة واشجة !

وقد أنجب قريب – على ما نعرف – ولدين وبنتاً ، وهما عبد الملك ، وعبد الله ، ولا ندرى عن عبد الله شيئاً إلاّ أنه والد عبد الرحمن المشهور بابن أخى الأصمعى – وهو أحد رواته – وقد تسترعيك كثرة ما ترى فى كتب الأدب واللغة هذه العبارة : « حدّثنا عبدُ الرحمن عن عمّه) ، أو (حدثنا عبد الرحمن بن أخى الأصمعى) .

أما البنت فهى أم أحمد بن حاتم – فى أغلب الظن – الذى يذكرونه على أنه ابن أخت الأصمعى ، وفيما عدا أحمد بن حاتم ، وعبد الرحمن – لا نرى من له خطر أو ذكر إلا ابن عمه ، ويسمى سَرّانَ ، ويكنى بأبى العباس ، ذكره أبو حاتم ، وعبد الرحمن على أنه من أهل العلم[٢٥] .

وكل ما استطعنا أن نصل إليه بالنسبة للأصمعى .. هو أنه تَزَوّج ، وأنجب ثم طلق زوجته ، وظل وحيداً بقية حياته : يحكى أبو حاتم – وهو تلميذه الذى لازمه – أن الأصمعى حدثه فى شيخوخته بأنه تزوج فى مقتبل العمر ، وأنجب ، وأنجب أولاده فى حياته – قال : دخلت على الأصمعى فى مرضه الذى مات فيه ، فسألته عن خبره ، ثم قلت له : كم سنة مضت من عمرك ؟ فقال : لا أدرى ! ولكنى أحدثك : كنت شاباً مقتبلاً ، فتزوجت ، فولد لى ، وولد لأولادى ثم أنشد :

إذا الرجالُ ولدت أولادُها واضطربت من كبر أعضاؤها
وجعلت أسقامها تعتادها فهى زروع قد دنا حصادها[٢٦]

---

(٢٤) يقصد حشرة كالقمل أو البرغوث .

(٢٥) زهر الآداب ٤ : ١٢٣ .

(٢٦) معجم الأدباء ٦ : ١٢٤ .

ويذكر الخطيب البغدادى قصة زواج الأصمعى بسنده عن محمد بن حبيب قال : سمعت علىّ بن هشام يقول : سمعت الأصمعى يقول : مررت بالبادية على رأس بئر، وإذا على رأسها جوار ، وإذا واحدة منهن كأنها البدر ، فوقع علىّ الرعدة ، وقلت لها :

يا أحسن الناس إنساناً وأملحهم هل باشتكانى إليك الحب من باس
فبينى لى بقول غير ذى خلف أبالصريمة تمضى عنك أم ياس

فرفعت رأسها وقالت لى : اخسأ فوقع فى قلبى مثل جمر الغضى ، فانصرفتُ عنها وأنا حزين ، ثم رجعتُ إلى رأس البئر ، فقالت :

هل نمح الذى قد كان أوله ونحدث الآن إقبالاً من الراس
حتى نكون ثبيرا فى مودتنا مثل الذى يحتذى نعلاً بمقياس

فانطلقت معها إلى أبيها ، فتزوجتها ، فابنى (على) منها[٢٧] .

ولا نكاد نعرف عن علىّ هذا شيئاً ، والمرجح أنه مات صغيراً ، أما أولاده الذين ذكرهم لأبى حاتم ، وذكر أنهم أنجبوا ، فإننا نرجح أن ذريته كانت من البنات ، وإلاّ كان ابنه صاحب السبق فى الحديث عن والده بدلاً من عبد الرحمن ابن أخيه ، أو أحمد بن حاتم .

ظل الأصمعى بعد ذلك حياته يخشى مسئولية الزواج وتبعاته ، وربما كان انصرافه إلى العلم ، وتفرّغه للرحلات الطويلة فى سبيله ، أو حرصه على المال ، وخشية الفقر — من الأسباب التى جعلته يحجم عن الزواج !

---

(٢٧) تاريخ بغداد ١ : ١٢٧ .